ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ ﴾[1]

﴿ يُؤْتُونَ . ۝٦٠ ﴾ [المؤمنون] يعنى المال ، وقال بعدها : ﴿ مَا آتَوا .. ۝٦٠ ﴾ [المؤمنون] حتى لا يجعل لها حداً ، لا العُشْر ولا نصف العُشر ، يريد سبحانه أن يفسح لأريحية العطاء وسخاء النفس ، لذلك جاءت ﴿ مَا آتَوا .. ۝٦٠ ﴾ [المؤمنون] هكذا مُبْهمة حتى لا نظن أنها الزكاة ، ونعرف أن الله تعالى يفتح المجال للإحسانية والتفضُّل ، وهذا هو مقام الإحسان الذى قال الله تعالى عنه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ ﴾ [الذاريات]

والمحسن : الذى يلزم نفسه من الطاعات فوق ما ألزمه الله ، لكن من جنس ما فرض الله عليه ، فإن كان الفرض فى الصوم شهر رمضان يصوم المحسن رمضان ويزيد عليه ؛ لذلك تجد الدقة فى الأداء القرآنى ، حيث يقول بعدها : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ ﴾ [الذاريات]

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. ۝٦٠ ﴾ [المؤمنون] قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون فى الخيرات » أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٩/٦ ، ٢٠٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٧٥) ، وابن ماجة فى سننه (٤١٩٨) ، واللفظ للترمذى .

وهذه أمور فـوق ما فـرض الله عليهم ، ولم يطلب منـك أن تقوم الليل لا تنام ، لكن صَـلِّ العشـاء ونَمْ حـتى الفـجر ، وهذه الـمسـألة واضحة فى قـوله تعالى بعدها : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ [الذاريات] ولم يـقل (مـعلوم) لأن الآية لا تتكلم عن الـحق المعلوم وهو الزكاة ، إنما عن الصدقة والتطوع فوق ما فرض الله .

والإبهـام فى ﴿مَـا .. ۝٦٠﴾ [المؤمنون] جـاء أيضـاً فى قـول الله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾ [طه] ولم يحدد مقدار الماء الذى غشـيهم ، وترك المسـألة مـبهمـة ليكون المعنى أبلـغ ، ولتذهب الظنون فى هَوْلها كل مذهب .

لكن ؛ ما دامـوا قد أعْطوا ومدُّوا أيديهم للآخـرين بالعطاء ، فلماذا يقول تعالى : ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. ۝٦٠﴾ [المؤمنون]

نقول : لأن العبرة ليست بمجرد العمل ، إنما العبرة بقبول العمل ، والعـمل لا يُقبل إلا إذا كـان خـالصـاً لوجه الله لا يخـالطه رياء ولا سمـعة ، فـهم إذن يعملون ويتـحرَّوْن الإخلاص وأسـباب القـبول ويتصـدَّق أحدهم بالصدقـة ، بحيث لا تعلم شـماله ما أنفـقتْ يمينه ، ومع ذلك يخاف عدم القبول ، وهذه أيضاً من علامات الإيمان .

وكأن ربك عز وجل يَغَارُ عليك أنْ تعمل عملاً لا تأخذ عليه أجراً ؛ لأنك إنْ رأيت الناس فى شىء من العمـل تركك الله وإياهم تأخذ منهم الجزاء ، فهذا إذن جَهْد مُهْدر لا فائدة منه ، وهذه المسألة لا يرضاها لك ربك .

وفى الـحـديث القـدسى : « الإخـلاص سِـرٌّ من أسرارى أودعـتـه

قلب مَنْ أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده »[١] .

والوجل : انفعال قسرى واضطراب يطرأ على العضو من خوف أو خشية ، والخوف شيء يخيفك أنت ، أما الخشية فهى أعلى من الخوف ، وهى أن تخاف ممن يوقع بك أذى أشد مما أنت فيه .

ومن أهل التفسير مَنْ يرى أن الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] جاءت فى الرجل الذى يسرق ، والذى يزنى ، والذى يشرب الخمر ، لكن قلبه وَجِلٌ من لقاء الله وخشيته ، فما يزال فيه بقية من بقايا الإيمان والحياء من الله تعالى . وقالوا : إن عائشة رضى الله عنها فهمت هذا من الآية[٢] .

لكن هذا الفهم لا يستقيم مع قوله تعالى ﴿يُؤْتُونَ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] أى : يؤتون غيرهم ، فهناك إذن مُوت ومُؤْتىً له ، ولو أراد السرقة والزنى وشرب الخمر لقال : يَأْتُون .

فالمراد : يؤتون غيرهم ما عليهم من الحق ، سواء أكانت هذه الحقوق لله تعالى كالزكاة والكفارات والنذور والحدود ، أو كانت متعلقة بالعباد كالودائع والأمانات والعدالة فى الحكم بينهم .. الخ فيؤدى المؤمن ما عليه من هذه الحقوق ، وقلبه وَجِلٌ ألاَّ يصاحب الإخلاص عمله فلا يقبل .

---

(١) ذكره الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٣٧٦) قال العراقى فى تخريجه : « رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلاً يقول كل واحد من رواته : سألت فلاناً عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبى ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف » .

(٢) سبق ذكر حديث عائشة وفهمها للآية صفحة ١٠٠٦٥ .

ثم يقول تعالى : ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون] فالمؤمن يؤدى ما عليه ، ومع ذلك تراه خائفاً وَجِلاً ؛ لأنه يثق فى الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه سبحانه ، وهو ربه الذى يُجازيه على قَدْر إخلاصه ، ويخاف أيضاً أن يفتضح أمره إنْ خالط عملَه شيءٌ من الرياء ؛ لأن ربه غيور لا يرضى معه شريكاً فى العمل ، وهو سبحانه يعلم كل شيء ويحاسب على ذرات الخير وعلى ذرات الشر .

وهناك أعمال فى ظاهرها أنها من الدين ، لكن فى طيها شيء من الرياء ، وإنْ لم يَدْرِ الإنسان به ، ومن ذلك قولهم : أفعل هذا لله ثم لك ، أو : توكلت على الله وعليك .. الخ ، فهذه العبارات وأمثالها تحمل فى طياتها معانى الشرك التى ينبغى أن نُنزِّه الله عنها ، فلا نعطف على الله تعالى أحداً حتى لا نشركه مع الله ، ولو عن غير قصد .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف] ويوم القيامة يطمئن أهل الإخلاص إلى الجزاء ، ويُفَاجأ أهل الشرك والرياء بوجود الله تعالى ، ولم يكن على بالهم حين عملوا : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. ۝٣٩﴾ [النور] إذن : ما دُمْنَا سنفاجأ بوجود الحق ، ولا شيء غير الحق ، فليكُنْ عملنا للحق ، ولا شيء لغير الحق .

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝٦١﴾

﴿أُولَٰئِكَ .. ۝٦١﴾ [المؤمنون] أى : أصحاب الصفات المتقدمة ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ۝٦١﴾ [المؤمنون] وفرْق بين أسرع وسارع : أسرع يُسرع يعنى : بذاته ، إنما سارع يسارع أى : يرى غيره

يسرع ، فيحاول أنْ يتفوق عليه ، ففيه مبالغة وحافز على المنافسة .

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين سارع إلى وسارع في ، فمعنى ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون] أنهم كانوا في حيِّز الخيرات ومظروفين فيه ، لكن يحاولون الارتقاء والازدياد من الخيرات للوصول إلى مرتبة أعلى .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون] هل المسارعة هي علَّة أنهم سبقوا إلى الخيرات ، أم أنْ سَبْقهم إلى الخيرات علّة المسارعة ؟

في اللغة يقولون : سبب ومُسبب ، وشرط وجزاء ، وعلة ومعلول . فحين تقول : إنْ تذاكر تنجح ، فالمذاكرة سبب في النجاح ، لكن هل سبقت المذاكرةُ النجاح ؟ لا ، بل وُجد النجاح أولاً في بالك ، واستحضرت مميزاته وكيف ستكون منزلتك في المجتمع وبين الناس ، وبذلك وجد عندك دافع وخاطر ، ثم أردت أنْ تحققه واقعاً ، فذاكرت للوصول إلى هذا الهدف .

إذن : فكل شرط وجواب : الجواب سبب في الشرط ، والشرط سبب في الجواب ، الجواب سبب في الشرط دافعاً له ، والشرط سبب في الجواب واقعاً وتنفيذاً ، فالنجاح وُجد دافعاً على المذاكرة ، والمذاكرة جاءت واقعاً ليتحقق النجاح .

وكذلك في ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون] فالمعنى : القصد أنْ يسبق فسارع ، سارع في الواقع ليسبق بالفعل ، لكن السبْق قبل المسارعة ؛ لأن الذهن متهيىء له أولاً وحقائقه واضحة .

إذن : الشرط والجزاء ، والسبب والمسبب ، والعلة والمعلول تدور بين دافع هو الجواب ، وواقع هو الشرط .

ومعنى : ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : هم أهل لهذا العمل وقادرون عليه ، كما لو طلبتُ منك شيئاً فتقول لى : هذا شيء صعب فأقول لك : وأنت لها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن المسارعة والمنافسة بيَّن أنها على قَدْر الوُسْع والطاقة ، وأنه سبحانه ما كلَّفك إلا بعد علْمه بقدرتك ، وأنك تسع هذا التكليف ، فإياك أنْ تنظر إلى الحكم فتقول : أنا أسعه أو لا أسعه ، لكن انظر إلى التكليف : ما دام ربك قد كلَّفك فاعلم أنه فى وُسْعك ، وحين يعلم منك ربك عدم القدرة يُخفِّف عنك التكليف دون أنْ تطلب أنت ذلك . والأمثلة على تخفيف التكاليف واضحة فى الصلاة والصوم والحج .. إلخ .

والآن نسمع مَنْ يقول : لم تَعُد الطاقة فى هذا العصر تسع هذه التكاليف ، فالزمن تغيَّر ، والأعمال والمسئوليات كثرت ، إلى غير ذلك من هذه الأقوال التى يريد أصحابها التنصّل من شرع الله . ونقول : ما دام التكليف باقياً فالوُسْع بَاقٍ ، والحق - سبحانه وتعالى - أعلم بوُسْع خَلْقه وطاقاتهم .

إذن : أنا أنظر أولاً إلى التكليف ، ثم أحكم على الوُسْع من التكليف ، ولا أحكم على التكليف من الوُسْع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [المؤمنون] المراد هنا كتاب أعمالنا[1] الذى سجّل فيه كل شىء قدّمته الأيدى ، لكن : ما الحكمة من تسجيل الأعمال ؟ وهل يُكذِّب العباد ربهم عز وجل فيما سُجِّل عليهم ؟

قالوا : الحكمة من تسجيل الأعمال أن تكون حجة على صاحبها ، وليعلم أن الله ما ظلمه شيئاً ؛ لذلك سيقول له ربه : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ .. (١٤) ﴾ [الإسراء] يعنى : بنفسك حتى تُقام عليك الحجة ، ولا يكون عندك اعتراض .

ثم قال بعدها : ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [المؤمنون] لأن الظلم لا يُتصوّر من الحق - سبحانه وتعالى - فالظلم نتيجة الحاجة ، وأنت تظلم غيرك حين تريد أن تنتفع بأثر الغير فى الخير زيادة عمّا عندك ، فالظلم إذن نتيجة الحاجة ، والحق سبحانه هو المعطى ، وهو الغنى الذى لا حاجةَ له إلى أحد ، فلماذا يظلم ؟

كذلك قد يظلم الضعيف ليأخذ ما فى يد غيره ليسدّ حاجته أو شهوته ، ولو كان قوياً لكفى نفسه بمجهوده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) ﴾

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤٦٦٧/٦) أقوالاً أخرى فى المراد بالكتاب فى الآية فقال : « وقيل : عنى اللوح المحفوظ ، وقد أثبت فيه كل شىء ، فهم لا يجوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ .. (٦٢) ﴾ [المؤمنون] القرآن ، فالله أعلم ، وكل محتمل ، والأول أظهر » يقصد أنه كتاب إحصاء أعمال العباد ، وهو ما ذهب إليه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله تعالى .

﴿بَلْ .. ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون] حرف يدل على الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات الحكم للكلام بعدها . والغَمْرة كما قلنا : هى جملة الماء الذى يعلو قامة الإنسان حتى يمنع عنه التنفس ويحرمه الهواء ، وهو أول مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

فالإنسان يصبر على الطعام شهراً ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام لعشرة ، إنما لا يصبر على النَّفَس إلا بمقدار ما يحتويه الصدر من الهواء ، فإنْ كان كانت رئتك سليمة تتسع لأكبر كمية من الهواء ، وتستطيع أنْ تتحمل عدم التنفس لفترة أطول ، أما إن كانت الرئة مُعتلّة ، فإنها لا تتسع لكمية كبيرة ، وسرعان ما ينتهى الهواء ويموت الإنسان .

ومن التنفس جاءت المنافسة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين] ثم استُعملَتْ لكل عمل تُنافس فيه غيرك ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسى فى الحياة .

لذلك الخالق - عز وجل - حينما خلق هذه البِنْية الإنسانية جعل لها نظاماً فريداً فى وقودها وغذائها على خلاف صَنْعة البشر ، فلو منعتَ البنزين مثلاً عن السيارة توقفتْ ، أمّا صنعة الخالق - عز وجل - فالجسم يأخذ حاجته من الطعام والماء ، ثم يختزن الباقى لوقت الحاجة ، وقد علم الحق سبحانه شهوتك وحبك للطعام والشراب ، وأخْذك منهما فوق حاجتك ، فإنْ غاب عنك الطعام تغذَّى جسمك من هذا المخزن الربانى .

لذلك نرى البعض حين يتأخر عنه الطعام يقول : نفسى انصدت عن الأكل ، والحقيقة أنه أكل فعلاً ، وتغذى من مخزون الطعام والشراب فى جسمه .

ومن حكمة الله أن الطعام الفائض يُختزن فى صورة واحدة هى الشحم ، الذى يتحول تلقائياً إلى أىّ عنصر آخر يحتاجه الجسم ، فإذا انتهى الشحم تغذّى الجسم على اللحم والعضلات ، ثم على العظام ، وهى آخر مخزن للقوت فى جسم الإنسان ؛ لذلك جاء فى قصة زكريا عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً (٤)﴾ [مريم]

أما الهواء فليس له مخزن إلا بقدْر ما تتسع له الرئة ، فإذا نفد منها الهواء بشهيق وزفير فلا حيلة فيه ، ومن رحمة الله بعباده ألاّ يُملّك الهواء لأحد ، فقد يملك الطعام وربما يملك الماء ، أمّا الهواء الذى يحتاجه فى كل نفَس ، فقد جعله الله ملْكاً للجميع ، حتى لا يمنعه أحد عن أحد ؛ لأنك لا تستطيع أن تحتال له كما تحتال للطعام وللشراب ، ولو غضب عليك مالك الهواء لمتّ قبل أنْ يرضى عنك .

ونلحظ هنا أن الغمرة لا تحتويهم هم ، إنما تحتوى القلوب : ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ .. (٦٣)﴾ [المؤمنون] وهذه بلوى أعظم ؛ لأن القلب محلٌّ لحصيلة المدركات التى يأخذها العقل ، ويُميِّز بينها ويختار منها ويُرجِّح ، ثم تتحول هذه المدركات إلى عقائد تستقر فى القلب وعلى هدْيها تسير فى حركة الحياة .

لذلك إنْ كان القلب نفسه فى الغمرة فالمصيبة أشدّ والبلاء أعظم ؛ لأنه مُسْتودع العقائد والمبادىء التى تُنير لك الطريق .

والقلب هو محلُّ نظر الله إلى عباده ، لذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا .. (١٧٩)﴾ [الأعراف]

وقال سبحانه: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٧)﴾ [البقرة] لأنهم أحبوا

الكفر واطمأنوا إليه ، ولأنه سبحانه ربٌّ متولٍّ ربوبية الخلق ، يعطيهم ما أرادوا حتى إنْ كان كفراً ؛ لذلك ختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ؛ لأنهم عشقوا الكفر وأحبُّوه .

لذلك نقول لأهل المصائب الذين يُصابون فى غَالٍ أو عزيز فيحزنون عليه ، ويبالغون بإقامة المآتم والسرادقات ، ويقيمون ذكرى الخميس والأربعين وغيرها ، وربما كان الابن عاقاً لوالديه فى حياتهما ، فإذا مات أبوه أو أمه أقام المآتم وشغل الناس ، وهو كما قال الشاعر :

لاَ أعْرِفنَّك بعْد الموتِ تَنْدِبنى وفِى حَيَاتِى مَا بلَّغْتَنى زَادَا

أو الأم التى فقدت وحيدها مثلاً ، فتعيش حزينة مُكدَّرة ، وكأنها عشقتْ الحزن وأحبّته ، نحذر هؤلاء وننصح كل حزين أن يُغلق باب الحزن بمسامير الرضا والتسليم ، فالحزن إنْ رأى بابه مُوارباً دخل وظَلّ معك ولازمك .

وسبق أن وضحنا أن الحق سبحانه لا يرفع بلاءً عن عبده حتى يرضى به ، ولنا القدوة فى هذه المسألة بأبينا إبراهيم - عليه السلام - حين ابتلاه ربه بذبح ولده فى رؤيا رآها ، واعتبرها هو تكليفاً ، ورضى بقدر الله وسلّم لأمره ، ثم أخبر ولده ووحيده بهذه الرؤيا حتى لا يحرمه هذا الأجر ولا يأخذه على غرّة ، فيتغير قلبه عليه :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

(١) تله : ألقاه على وجهه على الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

فبعد أن رضى إبراهيم وولده بقضاء الله رفع عنهما البلاء ، وجاءهما الفداء من الله لإسماعيل ، بل وزاده بأنْ بشّره بولد آخر هو إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، أجيال متعاقبة جاءتْ فضلاً من الله وجزاءً على الرضا بقضائه وقدره ؛ وما أحسن ما قال الشاعر[1] فى هذا الموقف :

سَلِّمْ لربك حُكْمه فلحكْمة ... يَقْضيه حتى تستْريح وتَغْنَما
واذكُرْ خليلَ الله فِى ذَبْح ابنه ... إذْ قَالَ خالقُه فلمَّا أسْلَما

إذن : إذا كانت القلوب نفسها فى غمرة ، فقد خرب جهاز العقائد والمبادىء ، وينشأ عن خرابه خراب حركة الحياة وانحراف السلوك . وقد أخذ القلب هذه الأهمية ؛ لأنه معمل الدم ، ومصدر سائل الحياة ، فإنْ فسدَ لا بُدَّ أنْ ينضح على باقى الجوارح ، فتفسد هى الأخرى ، ولو كان القلب صالحاً فلا بُدَّ أنْ ينضحَ صلاحه على الجوارح كلها فتصلح ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« ألا إن فى الجسد مُضْغة إذا صلُحت صلُح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) ﴾ [المؤمنون] يعنى الأمر لا يتوقف بهم عند مسألة العقائد ، إنما لهم أعمال أخرى كثيرة سيقعون فيها ، فالحق سبحانه لا يذكر لهم إلا قمم المخالفات ونماذج منها ، إنما فى علمه تعالى وفى لوحه المحفوظ أنهم سيفعلون كذا ويفعلون كذا ، وإنْ كانوا هم أنفسهم لا يعلمون أن ذلك سيحدث منهم لكن ربهم - عز وجل - يعلم بطلاقة القدرة ما كان وما سيكون .

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) . وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

ومن عجائب قدرة الله أنه سبحانه يحكم على عبده الكافر أنه سيعمل كذا وكذا ، ومع ذلك لم يعاند أحد الكفار ، فيقول : إن الله حكم عليَّ بكذا ، ولكنى لن أفعل فيكون حكم الله عليه غير صحيح ؛ لأن الحق سبحانه لا يتحكم فيما يجريه علينا فحسب ، وإنما فى اختيار العبد ومراده ، مع أن العبد حُرٌّ فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

وهذه القضية واضحة فى قوله تعالى عن أبى لهب : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾ [المسد] فقوله : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا .. (٣) ﴾ [المسد] تفيد المستقبل ، فقد حكم الحق سبحانه عليه أنه سيكون فى النار ، وكان أبو لهب فى أمة ومَجْمع من القوم الكافرين ، ومنهم مَنْ آمن فمن يضمن أن يسمع أبو لهب هذا الحكم ومع ذلك لا يؤمن ويموت كافراً ؟

ثم ألم يَكُنْ بإمكان هذا (المغفل) أن يقف على ملأ ويقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويدخل فى الإسلام ، فيكون الحكم فيه غير صحيح ؟ لكن هذا كلام الله وحكمه القديم لا يُردّ ولا يخالفه أحد مهما كان أمره فى يده وهو قادر على الاختيار ، هذا من طلاقة قدرة الله فى فعْله وعلى خَلْقه فى أفعالهم .

فالمعنى : ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) ﴾ [المؤمنون] حكم لا يُرد ولا يُكذَّب ، حتى وإنْ أخبر به صاحبه ؛ لأن علم الله تعالى مستوعبٌ لما كان ولما سيكون ، وكأن الحق سبحانه يقول : إن طلاقة القدرة ليست فيما أفعله فحسب ، إنما فيما يفعله غيرى ممَّنْ أعطيتُه حرية الاختيار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يعنى : بعد أن أشركوا بالله وكفروا به ، وبعد أنْ أصبحتْ قلوبهم فى غمرة وعمىً إذا مسَّهم شيء من العذاب يجأرون ويصرخون ، ومَنْ ذا الذى يطيق لفحة أو رائحة من عذاب الله ؟

ومعنى ﴿ أَخَذۡنَا .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون] كلمة الأخذ لها مجال واسع فى كتاب الله ، والأَخْذ : هو الاستيلاء بعنف على شيء هو لا يحبّ أنْ تستولى عليه ، والأَخْذ يُوحى بالعنف والشدة ، بحيث لا يستطيع المأخوذ الإفلات مهما حاول .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] يعنى : أخذاً شديداً يتململ منه فلا يستطيع الفكاك .

وقوله : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود]

ويقول : ﴿ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]

ومعنى : ﴿ مُتۡرَفِيهِم .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون] من الترف وهو التنعُّم ؛ لأن الحياة تقوم على ضروريات تستبقى الحياة وكماليات تُسعدها وتُرفِّهها وتُثريها ، فالمترَف مَنْ عنده من النعيم فوق الضروريات ، يقال : ترف الرجل يتْرَف من باب فَرِح يفرح ، وأترفته النعمة إذا أطغته ، وأترفه الله يعنى : وسّع عليه النعمة وزاده منها . وعلى قدر الإتراف يكون الأخذ أبلغَ والألم أشدَّ .

وسبق أن ذكرنا قول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام] يعنى : من منهج الله ، لم نُضيِّق عليهم إنما : ﴿ فَتَحۡنَا

عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام]

فهنا تكون النكاية أشدّ ، والحسرة أعظم .

والكلام هنا عن كفار قريش ، فكيف أخذهم الله وهم فى ترف من العيش ، حيث تصبُّ عندهم كل خيرات الجزيرة حتى عاشوا عيشة الترف والتنعم ؟

أخذهم الله حال ترفهم بالقَحْط والسنين ؛ لذلك لما رآهم النبى ﷺ أترفوا بالنعمة وطغَوْا بها قال : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »(١)

واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ، فأصابهم الجدب والقَحْط حتى أكلوا الجيف و (العِلْهز)(٢) وهو شعر الذبيحة أو وبرها المخلوط بدمها بعد أنْ جَفَّ وتجمد تحت حرارة الشمس ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

يصرخون ويضجّون ، فهذا أبو سفيان بعد أن أكلوا الجيف والفضلات يقول للنبى ﷺ : يا محمد ألستَ رحمةً للعالمين ؟ إذن :

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

(٢) العِلْهز : دم يابس يُدَق به أوبار الإبل فى المجاعات ويُؤْكَل . قال ابن شميل :

وإن قِرَى قحطان قِرْف وعِلْهز ... فاقبح بهذا ويح نفسك من فعل

[لسان العرب ـ مادة : علهز] .

فادْعُ الله أنْ يُفرِّج عنا ، فدعا رسول الله ﷺ ربه حتى فرج عنهم[1] .

أو : يراد بالعذاب هنا ما حدث لهم يوم بدر ، حيث أذلَّهم الله ، فقتل منهم مَنْ قتل ، وأسر مَنْ أسر ، وانهارت سيادتهم وضاعت هيبتهم ، وقد كانوا يُعذِّبون المؤمنين ويقتلونهم ، ويقيمونهم فى حَرِّ الشمس ويضعون الأحجار الكبيرة فوق بطونهم ، حتى أنزل الله تعالى فى هذه الحالة القاسية التى يعانيها المؤمنون : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فيستقبلون الآية بتعجُّب : حتى يقول عمر : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، فليس هناك أىّ بادرة لنصر المؤمنين ، فلما جاء يوم بدر ورأى المؤمنون ما حاق بالكافرين قال عمر نفسه : صدق الله ، سيُهزم الجمع وقد هُزم .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) ﴾ [المؤمنون] يجأر : يصرخ بصوت عالٍ ، والإنسان لا يصرخ إلا إذا كان فى محنة لا تقدر أسبابه على دفعها ، فيصرخ طلباً لمن ينجده ، ويرفع صوته ليُسمِع كل مَنْ حوله ، كما يقولون (يجعر) .

والجؤار مثل الخوار يعنى : يصيحون مثل العجول بعد ما كانوا رجالاً وسادة وطغاة ، فلماذا لم تظلّوا سادة ؟ لماذا تصرخون الآن ؟ وكان المنتظر منهم فى وقت الشدة أنْ يتماسكوا ، وأن يتجلّدوا حتى لا يشمت بهم العبيد والفقراء الذين آمنوا ، كما يقول الشاعر :[2]

---

(١) عن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعنى الوبر والدم - فأنزل الله ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٥١) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) الشاعر هو : أبو ذؤيب ، خويلد بن خالد الهذلى (توفى ٢٧ هـ) .

وتجلُّدى للشَّامتينَ أُريهُمــو   أنِّى لريْبِ الدهْرِ لا أتضعْضَعُ[1]

لكن ، هيهات فـقد حاق بهم العذاب ، ولن يخدعـوا أنفسهم الآن ، فليس أمامهم إلا الصراخ يطلبون به المغيث والمنجى من المهالك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يرد عليهم الحق سـبحانه : ﴿ لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [المؤمنون] لأن مَنْ يجـأر ينادى مَنْ ينصـره وأنتم لن تُنـصـروا ﴿ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَـرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [المؤمنون] لا تُنصـرون من جـهـتـنا ؛ لأننى أنصـر أوليائى ، وأنـصر رسلى ، وأنصر مَنْ يـنصرنى ، فاقطعـوا الظن فى نصرى لكم ؛ لأننـى أنا الذى أنزلتُ بكم ما جعلكـم تجأرون بسببـه ، فكيف أزيله عنكم ؟

وفى مـوضـع آخـر يتكـلم الحق سـبـحانـه عن أهل الكفـر الذين تمالئـوا عليه ، وشجَّع بعضـهم بعضاً على التجـرُّؤ على القرآن وعلى النبى ﷺ ، ويُصفِّقون لمن يخوض فى حقهما : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَـهُمْ[2] وَمَـا كَـانُوا يَعْبُـدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِـرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الصافات]

---

(١) التضـعضـع : الخـضوع والتذلل . وفى الحـديث : ما تضعـضـع امرؤ لآخـر يريد به عرض الدنيا إلا ذهب ثلثا دينه يعنى : خضع وذل . والتجلُّد : إظهـار الجلد وهو التصبر والشدة . [لسان العرب ـ مادتا : ضعع ، جلد] .

(٢) قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشـباههم وأمثالهم ، وقال عمر بن الخطاب : يجىء أصحـاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصـحاب الربا مع أصحـاب الربا ، وأصحاب الخـمر مع أصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٤/٤] .

إذن : لا تجأروا لأنكم لن تُنصروا منّا ، وكيف ننصركم بجؤاركم هذا ، وقد انصرفتم عن آياتي ؟

﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

كيف تستغيثون بالله وتجأرون إليه وأنتم تُلْقى عليكم آياته تشرح لكم وتثبت لكم وجود الله بالآيات الكونية ، وتثبت لكم صدْق الرسول بالمعجزات ، وتحمل لكم منهج الله في الآيات حاملة الأحكام ، ولكنكم عميتم عن ذلك كله .

ومعنى ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المؤمنون] العقب : مؤخرة القدم ، فبدل أن يمشى إلى الأمام كما خلقه الله وجعل له كشافات يُبصر بها الطريق ، ويهتدى إلى موضع قدميْه ، إذا به يمشى للخلف على عَقبه ، وكأنهم أخذوا أخْذاً غيَّر عندهم دولاب السير ، لماذا ؟ لأنهم عَمُوا عن أسباب الهداية ، فصاروا يتخبطون في متاهات الحياة على غير هدى ، كمَنْ يسير بظهره لا يعرف مواقع قدميْه ، وهكذا فعلوا هم بأنفسهم .

وهذا التراجع يسمونه في قيادة السيارات (مارشادير) ، ويحتاج فيه الإنسان لمن يُوجِّهه ويرشد حركته يميناً أو شمالاً ؛ لأنه لا يرى .

فالمعنى : لا تلُمْ إلا نفسك حيث حرمتها من أسباب الهداية ، فبعد أنْ جاءتك وأصبحت بين يديك أغمضتَ عنها عينيك .

وفي موضع آخر قال سبحانه عن الشيطان : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال]

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾